

أزمة الغيرية في الفلسفة المعاصرة
سؤال الاعتراف والمسؤولية عند إيمانويل ليفيناس

The crisis of heterosexuality in contemporary philosophy
The question of recognition and responsibility for Emmanuel Levinas

فضيلة سنوسي¹

¹ جامعة الدكتور طاهر مولاي سعيدة (الجزائر)، fadila.senouci@univ-saida.dz

تاريخ النشر: 2022/12/20

تاريخ القبول: 2022/06/22

تاريخ الإرسال: 2022/01/14

ملخص:

تعيش الإنسانية اليوم وأكثر من أي زمن مضى، أزمت عديدة، أهمها أزمة الغيرية، أي وجود صراع بين الأنا والآخر الذي يغذيه مبدأ الأنانية والحرية الفردية المطلقة، حيث يسعى كل طرف ومن منطلق الأنانية إلى إقصاء الآخر وعدم الاعتراف بغيرته، بل وإلى ممارسة العنف ضده، ومن أجل إيجاد حلولاً لمثل هذه المشاكل والأزمات، ساهمت الفلسفة من خلال تصويبها للعديد من المفاهيم، وتناولها لموضوع العلاقة بين الأنا والآخر ولمواضيع أخرى بالتحليل المنطقي لها، من أجل التحكم العقلاني في هذه الأزمات والمشاكل، ومن بين الفلاسفة الذين اهتموا بإيجاد حل لأزمة العلاقة بين الأنا والآخر، نذكر إيمانويل ليفيناس الذي أرجع أسباب هذه الأزمة إلى الحرية المطلقة وهيمنة مبدأ الأنانية على العلاقات الإنسانية، واقترح المسؤولية الأخلاقية كحل لهذه الأزمة.

الكلمات المفتاحية: الأزمة، الغيرية، العنف، الوجه، المسؤولية الأخلاقية، التضحية، الحوار.

Abstract:

Today more than ever, humanity is experiencing digital crises, the most important of which is the crisis of altruism, that is to say the existence of a conflict between the self and the other, which feeds on the principle of selfishness and absolute individual freedom. In order to find solutions to such problems and crises, philosophy has contributed by correcting many concepts and dealing with the question of the relation between the ego and the other and other subjects by their logical analysis, in order to rationally control these crises and problems. Among the philosophers anxious to find a solution to the crisis of the relation of the ego to the other, let us quote Emmanuel Levinas, who attributes the causes of this crisis to absolute freedom and to the predominance of the principle of egoism over human relations, and suggested moral responsibility as a solution to this crisis.

Keywords: crisis, altruism, violence, face, moral responsibility, sacrifice, dialogue.

توطئة (مقدمة):

اهتم الفلاسفة قديما وحديثا بإبراز أهمية الفلسفة ودورها الفعال في التأطير الحكيم لحياة الإنسان، فقد قدموا تصوراتهم للعديد من القضايا والمواضيع التي تهتم الإنسان في جوده مثل: الحرية، العدالة، الحق الواجب، السعادة، العلاقة بين الأنا والآخر،... الخ، وبأتي اهتمام الفلاسفة بهذا الأمر – إبراز قيمة الفلسفة وضرورتها- ردا على الاتهام الذي يلاحق الفلسفة والذي يفضي إلى أنها غارقة في التجريد، وأن مهمتها محدودة تنحصر في صناعتها للمفاهيم وحسب، دون أن تقدم منافع ملموسة للإنسان ودون أن تساهم في حل مشاكله، غير أن المتأمل لتاريخ تطور الفكر الفلسفي سيتبين له وبوضوح أن الفلسفة لم تكتف يوما بالتنظير للمفاهيم والتصورات، بل ما قدمه الفلاسفة من تصورات حول مواضيع عديدة يمكن للإنسان استثمارها (التصورات) في حل مشاكله وأزماته، سواء تلك التي تحدث بينه وبين غيره أو أزمة علاقته بالطبيعة (البيئة الأركيولوجية)، وإن تأملنا جيدا طبيعة المشاكل التي يعاني منها الإنسان، وبحثنا عن السبب المحدث لها، لتوصلنا إلى أن السبب الأصل لمعظم مشاكله هو حيازته للتفكير السلبي السطحي الذي يجعل مدركاته خاطئة أو ناقصة، وهذه المدركات الخاطئة قد ترج به في خلافات وصراعات مع غيره تصل حد الصراع، خاصة وإذا تعلق الأمر بإدراكه الخاطئ واللاوعي لمعنى الحرية، أو الحق أو الواجب، وكيفية تعامله مع غيره، لذلك كانت مهمة الفلسفة دوما هي تصويب الفكر، والانتقال به من التفكير السلبي السطحي إلى التفكير العقلاني، وذلك من خلال الضبط السليم لدلالات المفاهيم، فقد قدّم الفلاسفة الرواقيون مثلا علاجا للأمراض الروحية والتي تتسبب في حدوثها سيطرة الأفكار السلبية والخاطئة على ذهن الإنسان، وكان العلاج متمثلا في إحلال الأفكار الإيجابية محل الأفكار السلبية، وقد اقتبس علماء النفس هذا العلاج من الرواقيون وأطلقوا عليه اسم العلاج المعرفي السلوكي، كذلك المفاهيم التي أنتجت الفلسفة لم تكن مفاهيم جوفاء ساكنة، بل هي مفاهيم ديناميكية قيمتها تكمن في تغيير مدركات الإنسان إلى ما هو منطقي وعقلاني.

ومن المدركات الخاطئة التي يحملها الإنسان في ذهنه والتي يمكن أن تتسبب في حدوث مشاكل بينه وبين غيره، نذكر إدراكه الخاطئ لمعنى الحرية إذ نجد العديد من الناس يؤمنون بوجود حرية مطلقة غير مشروطة، مما يدفع الإنسان المؤمن بهكذا حرية، إلى التصرف وفق هذا المفهوم، وكذلك بفعل غيره، فتتعارض المصالح، ويسعى كلا الطرفين إلى فرض سيطرته وهيمنته على الآخر، باسم الحرية المطلقة، وتحدث أزمة الصراع بين الأنا والآخر وما يقال عن العلاقة بين الأفراد، يقال أيضا عن العلاقة بين الجماعات والدول لذلك ومن أجل تصويب هذا الفهم الخاطئ، قدّم الفلاسفة تصوراتهم لمعنى الحرية النسبية المشروطة بالمسؤولية، كما قدموا تصوراتهم لمفاهيم أخرى تعمل في حقل الحرية منها التضافيف بين الحق والواجب، العدالة،... الخ، وبالتالي فإن ضبط الفلسفة للمفاهيم ودلالاتها يؤدي إلى إحداث تغيير في مدركات الناس، ومن ثمة الدفع بهم إلى إعادة النظر في طريقة العيش وتعاملهم مع بعضهم البعض، وكذا تغيير نظرتهم للحياة، إنه العلاج الفكري الذي تقدّمه الفلسفة وهو أرقى وأهم العلاجات. وما ينبغي الإشارة إليه أن العديد من الفلاسفة تطرقوا إلى إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر أو أزمة الغيرية، سعيا منهم إلى تحليل طبيعة هذه العلاقة ومن ثمة دفع الفكر إلى إيجاد حل لأزمة الصراع المتحكمة في هذه العلاقة، وإن كان البعض منا يرى أن الفلاسفة الذين أكدوا على أن العلاقة بين الأنا والآخر علاقة صراع، إنما ساهموا في تغذية هذا الصراع بفلسفاتهم فإننا نؤكد أن ما يهمننا في تصوّرهم لهذه العلاقة هو تحليلهم لأسباب هذا الصراع وطبيعته، وهذا سيساعدنا على فهم هذه العلاقة حتى وإن كانت صراعا، ومن ثمة معرفة أسباب الصراع والبحث عن حلول له، من أجل ضبط العلاقات بين الأفراد فتشخيص المرض مهم لمعرفة الدواء.

ومن الفلاسفة الذين تناولوا أزمة الغيرية أو العلاقة بين الأنا والآخر نذكر **فريدريك هيجل** الذي يوضح من خلال جدلية العبد والسيد أن العلاقة بين الأنا والآخر هي دوما علاقة صراع أين يسعى كل منهما إلى إقصاء الآخر من أجل تأسيس الذات، وهذا الصراع القائم بين الأنا والآخر له مظهرين، فمن جهة هو نشاط يقوم به الإنسان لإثبات حريته، ومن جهة ثانية يمارسه ضد الآخر للدخول معه في الصراع.

وفي نفس التوجه يذهب **ألكسندر كوجيف** الذي يؤكد على العلاقة بين الأنا والآخر علاقة صراع حيث يسعى كل طرف إلى الهيمنة على الطرف الآخر، فيتشكل السيد والعبد، كما أن الواقع الاجتماعي لا يتحقق إلا بالصراع بين السيد المهيمن والعبد المستسلم الخاضع، أي أن السيد لا يمكنه أن يحافظ على مكانته الاجتماعية إلا بالتغلب على العبد والسيطرة عليه، أما **رونيه ديكرت** فإنه يرى أن وجود الغير ليس ضروريا لمعرفة الذات لذاتها، فهي – أي الأنا- تعرف ذاتها وتثبت وجودها بالوعي (العقل)، وبالتالي هي ليست بحاجة إلى وجود الغير، في حين يذهب **جون بول سارتر** إلى القول بأن وجود الآخر أمر لا يحتاج إلى برهان وأن وجوده ضروري لإثبات الذات، غير أن المشكلة الحقيقية ليست هي إثبات وجود الآخر وإنما هي في علاقة الأنا بالآخر، فهذا الأخير يمثل دوما جحيما للأنا وهو سرّ

الحروب، صحيح أن وجوده ضروري لمعرفة الذات ولولاه لما عرفت الذات ذاتها وهي معرفة تجعل الذات موضوعا للمعرفة، فهي تدرك العالم كله لأنه موضوعا لوعيها، ولكن بحضور الآخر تصبح الأنا بدورها موضوعا لوعي الآخر، وبالتالي فهو – الآخر – الجحيم لأن وجوده وضع الأنا كموضوع أمام وعي الآخر، وبالتالي وحسب تصوّر سارتر فإن العلاقة بين الأنا والآخر علاقة التقاء وليست علاقة تأسيس، وفي المقابل يؤكد ميرلو بونتي على أنّ العلاقة بين الأنا والآخر ليست علاقة صراع، إذ ينظر إلى الغير كذات مماثلة لها وعيها وحريتها وإنسانيته وبالتالي فالعلاقة بين الأنا والغير يجب أن تكون قائمة على التعاطف والمشاركة الوجدانية، بمعنى أنّ ميرلو بونتي قد وجد في مسألة البنائية حقا أنطولوجيا لمسألة الآخر وذلك من خلال سؤال الجسد في العالم، فالإنسان هو ذات متجسدة في العالم، والأنا تجمعها بالآخر علاقة اجتماع على أن تكون للأنا رغبة حقيقية وصادقة في الوجود مع الآخر، ويذهب إيدموند هوسرل إلى القول بأن العلاقة بين الأنا والآخر تقوم عن طريق العالم، بمعنى أدق حينما ينكشف للوعي يحيل إلى الآخر لأن هذا الأخير هو شرط مهم لتأسيس الأنا والتي هي جزء من العالم، أي أن وجود الآخر ضروري للأنا عكس ما ذهب إليه ديكرت.

أما إيمانويل ليفيناس فقد ساهم بدوره من خلال فلسفته الغيرية في تصويب مدرجات الناس وتنويرهم وإمدادهم بالحل لأهم مشاكلهم، حيث حدد أسباب أزمة الغيرية (الصراع بين الأنا والآخر)، وقدم الحل الإيتيقي لهذه الأزمة من خلال إعادة صياغته لمفهوم المسؤولية ولنا أن نتساءل: ما طبيعة المسؤولية التي يتصوّرها إيمانويل ليفيناس؟ وكيف تساهم في حل أزمة الغيرية؟

1. مفهوم المسؤولية في المنظومة الليفيناسية:

1.1. الحرية المطلقة وأزمة الغيرية:

من الأزمات التي تعيشها الإنسانية؛ أزمة الغيرية، أو عدم اعتراف الأنا بوجود الآخر المخالف لها، وعدم احترامها لغيريتها، وإقصاءها في كثير من الأحيان لهذا الأخير بل وممارستها العنف ضده، ويوضح إيمانويل ليفيناس السبب الذي أدى إلى ظهور هذه الأزمة، حيث يؤكد أن مفهوم الحرية المطلقة، هو مفهوم أنتجته الليبرالية، فتقديس الفلسفة الغربية للحرية المطلقة ترتب عنه حصر المعرفة في معرفة الإنسان لنفسه وعي الذات لذاتها، دون أن تهتم هذه الذات بمعرفة الآخر المغاير لها، كما أوضحت العلاقة بين الأنا والآخر، حسب هذه الفلسفة هي علاقة تماثل بمعنى أنّ الأنا تحاول جعل الآخر مماثلا لها وهي بهذا لا تحترم غيريتها، فمثلا لها هوايتها وثقافتها وديانته وعاداتها واهتماماتها للآخر أيضا هويته وثقافته وديانته... الخ، وعليه فالآخر ليس مماثلا لها وعليها أن تحترم هذا. إنّ الحرية المطلقة، كما يوضح إيمانويل ليفيناس أفقدت الإنسان إنسانيته، بل كانت السبب الأول في اندلاع الحروب وحوادث الأزمات ولهذا ينتقد إيمانويل ليفيناس الحرية الفردية المطلقة ويرفضها، لأن الإيمان بهذه الحرية والعمل بمقتضاها يمكن الأنا من تحقيق مصالحها على حساب الآخر ويدفع بها إلى فرض سيطرتها وهيمنتها واضطهادها للآخر، وطبعا علاقة مثل هذه هي علاقة لا أخلاقية مؤسسة على الأنانية وإقصاء للآخر وعدم احترام غيريته، فالفلسفة الغربية كما يؤكد إيمانويل ليفيناس اهتمت بالحقوق الفردية وهذا التوجه أدى إلى استبعاد الأخلاق في التعامل مع الآخر، لذلك ومن أجل التأسيس الأخلاقي لعلاقة الأنا بالآخر، يقترح إيمانويل ليفيناس ضرورة إخضاع الحرية الفردية المطلقة للقانون الأخلاقي الذي سيحد منها ويعطيها بعدا إنسانيا، أي وجب الانتقال من الحرية الفردية المطلقة إلى الحرية الاجتماعية، والذي سترتب عنه شعور الأنا بالمسؤولية تجاه الآخر، أي شعورها بالالتزام الأخلاقي نحو الآخر، فالحرية مشروطة بالمسؤولية وهذه الأخيرة أسبق من الحرية، والذي يمنح أحقية السبق للمسؤولية هو كون هذه الأخيرة إلزام أخلاقي، وأيضا لأن لها بعدا إنسانيا يقول إيمانويل ليفيناس: "إنّ المسؤولية أكثر أصلية من الحرية، وهي مسؤولية لا تجد البتة أصلها في هذه الحرية بل هي لا تقوم إلا ضدها وقبلها" (Emmanuel, 1994, p. 52/53)

ومعنى هذا أن الأنا إذا آمنت بأنها تمتلك حرية مطلقة مخولة من القانون الوضعي، فإنها لن تشعر بالالتزام الأخلاقي نحو الآخر، بل ستعتمد إلى سلب إنسانيته وإقصاءه وعدم الاعتراف بغيريته، وبالتالي فإن إخضاع حرية الذات للقانون الأخلاقي من شأنه أن يحد من مطلقيتها، فتصبح حرية نسبية، فوجود الآخر يحد من حرية الأنا، وبهذا التصوّر يكون إيمانويل ليفيناس قد أعاد صياغة مفهوم الحرية، بل وأعاد ضبط دلالتها، فهو لا يقصد بها تلك التي تدفع بالأنا إلى ممارسة العنف ضد الآخر، وإنما هي حرية محدودة شرعها القانوني الأخلاقي الذي يلزم الأنا بأن تكون مسؤولية أخلاقيا تجاه الآخر وبدون مقابل.

وما يقال عن العلاقة بين الأفراد، يقال أيضا عن العلاقة بين الجماعات والدول، إذ وجب على الدول أن تؤسس علاقاتها على الالتزام الأخلاقي وليس على الحرية المطلقة، وعلى الدولة أن تشرع قوانينها الداخلية لخدمة إنسانية

الإنسان وحمايتها، وكذلك وجب أن تكون العدالة على المستوى الخارجي أي احترام الحريات الأخلاقية للشعوب، واحترام وجودها والاعتراف بها تلکم هي مسؤولية الدولة اتجاه أفرادها، واتجاه الدول الأخرى.

2.1. المسؤولية اللامتناهية:

يقول إيمانويل ليفيناس: "... مسؤوليتي تمتد إلى حد المسؤولية التي يمكن أن يأخذ بها الآخر، أنا دائما أملك مسؤولية أكثر من الآخر، لأنني مسؤول عن مسؤوليته، وإذا كان هو مسؤولا عن مسؤوليتي، فإني ما زلت مسؤولا عن المسؤولية التي تأتيه من مسؤوليتي... وهذا الأمر لا ينتهي" (Emmanuel, 1982, p. 106) بمعنى أن وجود الآخر يفرض على الأنا أن تشعر بالمسؤولية تجاهه، ولكن دون أن تفرض الأنا على الآخر مسؤوليته، فهي غير مشروطة، فالأنا تكون مسؤوليتها نحو الآخر أكثر من مسؤولية الآخر نحوها، إنها لا تنتظر مقابل، أي أنها لا مشروطة ولا تبادلية. يقول إيمانويل ليفيناس: "إن مسؤوليتي اتجاه الآخر تفرض ذاتها علي مهما كان موقف الآخر مني، فالعلاقة مع الآخر ليست تماثلية، أي مسؤول عن الآخر دون مقابل حتى ولو كلفني ذلك حياتي، فالمبادلة تخص الآخر وحده" (Emmanuel, *ethique et infini*, 2011, p. 94/95) كما أن هذه المسؤولية التي يحدثنا عنها إيمانويل ليفيناس غير متناهية تتعدى العلاقة بين اثنين لتمتد إلى الغريب والعدو، وليست مطلبا للتأسيس الأخلاقي للعلاقة بين الأفراد فحسب، وإنما لها بعدا سياسيا، وهي ضرورية لتأسيس علاقات بين الدول تأسيسا أخلاقيا، كما وجب الإشارة أيضا إلى أن الأنا مسؤولة عن الآخر بالمعنى الإيتيقي، وليس تلك المسؤولية التي يفرضها القانون الوضعي فالمسؤولية الأخلاقية أرقى من المسؤولية القانونية، إن الأنا مسؤولة عن مسؤولية الآخر، وكذلك مسؤولة عن مسؤولية الجميع إنها مسؤولة عن مسؤولية الكل.

2. البعد الإنساني للمسؤولية حسب تصوّر إيمانويل ليفيناس:

1.1. الوجه والمسؤولية:

يتحدث إيمانويل ليفيناس عن إمكانية معرفة الأنا للحالة الإنسانية التي يعيشه الآخر، دون أن يتكلم هذا الأخير، فالأنا تتمكن من معرفة ذلك من خلال قراءتها لتعبير الوجه Le Visage (وجه الآخر) ولكن فيما تكمن العلاقة بين الوجه، وشعور الأنا بمسؤوليتها نحو الآخر؟ أو بمعنى آخر هل يلزمني وجه الآخر بتحملي مسؤوليتي نحوه؟

بداية يعرف إيمانويل ليفيناس الوجه على أنه الجسد فيقول: "جسد الإنسان بتمامه وجه" (Emmanuel, *ethique et infini*, 2011, p. 104)

كما يؤكد أن الأنا تحاول معرفة الآخر، من يكون؟ وما يريد قوله لها؟ وحالته الإنسانية؟ ولا يمكنها معرفة كل هذا إلا من خلال وجهه، فالوجه يحدثها ويدعوها للقاء إيتيقي، إنه يجعل الإينية تنفتح على الغيرية، ومن خلال الوجه يتجلى لها الآخر، ويتم هذا التجلي عبر النظرة، ولا يقصد بالنظرة الرؤية الحسية وإنما التمتع والإبصار.

فالوجه في عريه يعبر عن هشاشته، إنه يعبر عن حالة إنسانية ما يعيشها الآخر، يقول إيمانويل ليفيناس: "يعرض الوجه في عريه عوز الفقير والغريب، غير أن هذا الفقر، وهذه الغربة اللذان يستدعيان قدراتي ويقصدانني ولا يلجآن إلى هذه القدرات كمعطيات هما تعبير الوجه ذاته" (Emmanuel, *auteurement qui etre ou de lessence*, 1978, p. 14) ويقول أيضا: "إنّ الذات بمجرد رؤيتها للفقراء فأول ما يتبادر لها هو ما الذي يمكنني القيام به" (Emmanuel, 1982, p. 89)

فالوجه في عريه يمنعني من قتله وممارسة العنف ضده، وقد رفض إيمانويل ليفيناس قراءة الوجه من خلال وصف تفاصيله، أي قراءة الوجه لا تنعي وصف لون العينين، وحجم الأنف والفم والجبهة،... الخ وصفا حسيا، فالوجه ليس ظاهرة مثل باقي الظواهر التي تظهر أمامنا في الوجود، ونصفها كما تبدو أمامنا، وإنما الوجه تجلي، وهناك دوما ما وراء الوجه الذي لا نصل إليه بالرؤية الحسية، والذي وجب على الأنا الوصول إليه ومعرفة من خلال قراءة تعابير قراءة تبصر وتعمق يقول إيمانويل ليفيناس: "الوجه حدث أساسي، من بين الطرق العديدة للاقترب من الكائن والارتباط به، يُعد فعل الوجه خاصا وفي هذا النطاق من الصعب إعطاء وصف دقيق على الصعيد الفينومينولوجي للوجه، إن فينومينولوجيا الوجه هي غالبا سلبية" (Emmanuel, 1982, p. 12)

بمعنى أن الوصف الفينومينولوجي للوجه، لا يدخل الأنا في علاقة اجتماعية أخلاقية إنسانية، إنما هو وصف ينطبق على المواضيع، في حين الوجه ليس ظاهرة أو موضوعا يوصف، وإنما هو تجلي يعبر عن حالة إنسانية واجتماعية ما فلا يمكن الحديث عن فينومينولوجيا للوجه عند إيمانويل ليفيناس بالتصوّر الهوسرلي، ولا بالتصوّر الهيدجري، لأن الفينومينولوجيا الهوسرلية تهتم بدراسة الشعور، أي دراسة الأشياء بالكيفية التي يظهر بها الموضوع أمام الوعي القصدي، فالوعي إذن وحسب هوسرل يدرك الموضوع في تعاليه القصدي، وهذا ما يرفضه إيمانويل ليفيناس ويعتبره تعال زائف وجب التخلي عنه واستبعاده يقول إيمانويل ليفيناس: "إنّ الوجه ليس مرثيا، إنه ما لا يمكن احتواؤه، ويقودكم دوما إلى الماوراء" (Emmanuel, 1982, p. 86)

وعليه فإن أفضل طريقة للنفاد إلى ما وراء الوجه، هي أن لا نتبين لون العينين، بمعنى لا نهتم بتفاصيل الوجه يقول إيمانويل ليفيناس في هذا الشأن: "...إني اعتقد خلافاً لذلك بأن السبيل إلى الوجه هو في الواقع أخلاقي، فلما ترون أنفاً وعيون، وجبين وذقن وتتمكنون من وصفها، فإنكم تنظرون إلى الآخر بنفس النظرة لأي موضوع ولذلك، فإن أفضل طريقة للقاء الآخر هي أن لا يبحث ولا يتبين المرء لون عينيه، فحين تبصرون لون عينيه لا نكون في علاقة اجتماعية مع الآخر وطبعاً يمكن للعلاقة مع الوجه أن تكون محكومة بالإدراك الحسي" (Emmanuel, ethique et infini, 2011, p. 79/80)

بمعنى وجب على الأنا أن تقرا تعابير الوجه بعمق وتبصر للكشف عن ما وراء هذا الوجه، هذه القراءة التي يدعونا إليها إيمانويل ليفيناس تذكرنا بالمناهج التي استخدمها القباليون في تفسيرهم للنص التوراتي، فهم أيضاً أكدوا على أن النص التوراتي له معنى ظاهر وجب أن لا يأخذ به، ومعنى ما وراء النص الظاهر (أي الباطني) يصل إليه المفسر من خلال استخدامه لمناهج تأويلية تكشف عن المعنى الخفي للنص التوراتي (التأويل)، ومن مناهجهم التي وظفوها لأجل ذلك نذكر مثلاً منهج رمز، وداراش، وسود، ومنهج الجمطرية،... الخ، وكلها مناهج تبرز حسب اعتقادهم المعنى الخفي غير الظاهر للنص التوراتي، فالمعنى الظاهر للنص التوراتي، والذي لم يأخذ به القباليون يقابله في تصور إيمانويل ليفيناس لفينومينولوجيا الوجه، الوصف الظاهري أو وصف تفاصيل الوجه وأجزائه حسياً، والقراءة التأويلية للكشف عن المعنى الخفي للنص التوراتي التي يؤمن بها القباليون، تقابلها القراءة المتبصرة للوجه في التصور الليفيناسي، ويأتي ذكرنا لهذه المقاربة أو المماثلة بين طريقة تأويل وفهم القباليون للنص التوراتي، وطريقة قراءة تعابير الوجه التي يدعونا إليها إيمانويل ليفيناس، من باب الإشارة إلى فرضية تأثر إيمانويل ليفيناس بالفكر القبالي، خاصة وأنه عاش في ليتوانيا، وهي المنطقة التي انتشرت فيها الحركة الحسيدية وهي تيار حديث للقبالة (التصوف الباطني الحلولي اليهودي)، وهذه الحركة أسسها الحاخام بعل شيم طوف، وكان لها تأثير بالغ الأهمية على فكر العديد من الفلاسفة اليهود.

والمؤكد أن قراءة الأنا لوجه الآخر من أجل معرفة الحالة النفسية والإنسانية التي يعيشها، لا تحتاج إلى بذل مجهود كبير ولا تستغرق وقتاً كبيراً، صحيح أن هناك ما وراء الوجه أي ما يخفيه الوجه، ولكن التبصر المعظم له يكشف عنه، فالوجه يفصح بطريقة ما عن هذه الحالة دون أن يتكلم، وعليه فإن اللقاء بين الأنا والآخر أو لقاء الوجه لوجه هو لقاء يؤسس لعلاقة أخلاقية بينهما لأن للوجه نداء، وإن أول ما يقوله لا تقتلني أبداً، يقوله دون كلام، وإنما من خلال تعابير الوجه تعرف الأنا ذلك، تعرف حالته الإنسانية، وتعرف ما يريد قوله لها، لأن الوجه كما سبق وأن ذكرنا يعبر عن فقره وعجزه، ضعفه وبؤسه، وإدراك الأنا لذلك يكون إدراكاً جواً، وليس إدراكاً حسياً، ورغم أن الأنا بإمكانها قتله وممارسة العنف ضده، إلا أنها تستجيب لنداءه ولا تقتله، وهي بذلك إنما تعترف بإنسانية الآخر، وتحرر من تمركزها حول ذاتها، فتخرج من عزلتها وتستضيف الآخر، يقول إيمانويل ليفيناس: "يفرض الوجه ذاته علي فلا أستطيع أن أمتنع عن سماع نداءه، أو أن أنساه أو أن أتخلى عن مسؤوليتي أمام بؤسه" (Emmanuel, humanisme de l'autre homme, 1994, p. 52/53)، إن السبيل إلى الوجه هو أخلاقي والعلاقة معه اجتماعية متى ابتعدنا عن الوصف الظاهري لتفاصيل أجزائه ونفذنا إلى ما وراء هذا الوجه.

2.2. المسؤولية كشعور بالتضحية من أجل الآخر::

إن المسؤولية التي يتحدث عنها إيمانويل ليفيناس لا تعني شعور الأنا بضرورة تقديم يد العون له وعدم قتله فحسب، وإنما فضلاً عن ذلك هي تضحي بحياتها إن تطلب الأمر من أجل بقاء الآخر حياً، أي وجب عليها أن تشعر بالخوف على موت الآخر، والمقصود بالموت هنا هو ذلك الذي يكون بالقتل والتعذيب، والذي لا يراعي إنسانية الإنسان، وعليه إن تطلب الأمر أن تضحي من أجل بقاء الآخر، عليها أن تفعل ذلك، يقول إيمانويل ليفيناس: "...إنها تضحية تبلغ هوس التفكير في أن خشيتي موت الآخر تتقدم خشيتي على ذاتي وتحاربها" (Levinas, 1991, p. 58)

ويقول أيضاً: "عندما أصبح مسؤولاً عن الآخر، أصبح مسؤولاً عن موته (sa mort) فالخوف من أن يموت الآخر هو التأكيد أساس المسؤولية عن الآخر (Emmanuel, ethique et infini, 2011, p. 117/118) كما يشترط إيمانويل ليفيناس في التأسيس للعلاقة بين الأنا والآخر، أن تكون قائمة على المشاركة والحب والطيبة، فالحب يحافظ على جمالية هذه العلاقة ودوامها حتى بعد موت أحدهما، وحتى وإن مات الآخر، فإن ذكره الجميلة تبقى في ذاكرة الأنا ولا تموت بموته، والذي يبقى عليها هو علاقة الحب التي جمعتها يقول: "...فما هو إنساني هو أن قلق موت الآخر يأتي قبل الانشغال بالذات، الإنساني هو الموت من أجل الآخر، الذي يشكل معنى الحب في المسؤولية عن القريب، وربما الانحناء الأولي لما هو عاطفي من حيث هو كذلك" (الدين، 2003, p. 70/71)

ولا يقصد بالحب هنا ذلك الحب الشهواني كالذي بين المرأة والرجل، وإنما هو الحب الذي تفرضه الأخلاق، فالأنا ملزمة أخلاقيا أن تحب الآخر وتحترمه أما الطيبة فهي تجعل الإنسان صانع السلام ومحباً له، يقول إيمانويل ليفيناس: "... المسؤولية أمام الإنسان الآخر يعبر عنها بشكل أساسي بالطيبة (La Bonté) إزاءه، فبالطيبة يصبح الإنسان فاعل سلام فالسلام إذن لا يتطابق مع نهاية القتال لقلّة المقاتلين، وبخسارة البعض وانتصار البعض الآخر، أي مع نشوء المدافن ونشوء الإمبراطوريات الشاملة المستقبلية، على السلام أن يكون سلامي أنا، بعلاقة تنطلق بين الذات نحو الآخر، بالرغبة والطيبة حيث أنا تقوم وتستمر بدون أناية" (Emmanuel, autrement qui être ou de lessence, 1978, p. 134)

2-3- الحوار والمسؤولية:

من مظاهر أزمة الغيرية نذكر أيضا إقصاء الأنا للآخر، ورفضها التمازج معه، وقد يكون ذلك إما بحجة الاختلاف بينها وبين الآخر في العقيدة، أو بسبب اختلافات سياسية أو إيديولوجية، أو عرقية، وحتى وإن قبلت التمازج معه، فلن يكون حواراً أخلاقياً مثمراً، بل ستحاول في تمازجها معه فرض سلطتها وإقصاءه، فالعنف لا يعني فقط ضرب الآخر أو تعذيبه أو قتله، وإنما رفض الاستماع إلى ما يريد قوله لنا هو نوع آخر من أنواع العنف، لذلك يدعو إيمانويل ليفيناس الأنا إلى ضرورة قبولها التمازج مع الآخر فإن فعلت ذلك فإنها تكشف عن طبيعتها هذا من جهة، وكذلك تعطي فرصة للآخر للخروج من عزلته من جهة أخرى، فتدخل بذلك في علاقة اجتماعية إنسانية، شريطة أن يكون هذا الحوار أخلاقياً يقول إيمانويل ليفيناس: "... إننا قبل أن نلتقي الشخص الآخر على صعيد المعرفة، فإننا متقلون بفعل المسؤولية والاحترام لدعم الآخر، فالمسؤولية عن الآخر تسبق فهم الآخر، لذلك يأتي اللقاء الأخلاقي أولاً قبل الحديث المعرفي وفي المواجهة البدائية يمكن أن يحدث الحوار الحقيقي ويمضي قدماً" (Levinas, 1993, p. 17)

إن أول حوار (كلام) يتم بين الأنا والآخر، هو في لقاء وجه لوجه هو كلام الوجه، صحيح أنه كلام غير منطوق، لكن تعابير الوجه هي أيضاً لغة فالوجه يعبر عن ضعف صاحبه وعوزه وفقره، والوجه يقول للأنا لا تقتلني إنه يستدعيها للحوار والتواصل الإيجابي، والحوار الأخلاقي، بعيداً عن الإقصاء والعنف يقول إيمانويل ليفيناس: "... العقل والكلام هما خارج العنف، إنهما النظام الروحي، وإذا كان على الأخلاقية أن تنبذ العنف فيجب أن يكون هناك رابط عميق ما بين العقل والكلام والأخلاق" (Levinas, difficile liberté, 2010, p. 19)

إن الحوار لا يكسبني معرفة بالآخر فقط، وإنما يجعلني أرحب به وكذلك يفعل الآخر نحوي ومسؤوليتي لا تقتصر على التفكير فيما يخصني فقط وإنما أيضاً التفكير فيما يخص الآخر، وعليه فإن ثلاثية العقل، والكلام والأخلاق التي يشير إليها إيمانويل ليفيناس يقصد بها الإشارة إلى أن الحوار ككلام هو فعل الإنسان العاقل الذي يلتزم بالأخلاق في تمازجه مع الآخر، فالإنسان العاقل لا يمكنه إقصاء الآخر ورفض التمازج معه، بل من الفطنة والحكمة أن يرحب به ويستمع إليه، لأنه يدرك جيداً أن رفضه التمازج معه، هو ممارسة للعنف ضده (الآخر)، وهو طبعاً فعل لا إنساني ولا أخلاقي، كما أن قبول الأنا التمازج مع الآخر، هو فعل أخلاقي، بل واجب أخلاقي، يقول إيمانويل ليفيناس: "إنني عندما أشارك شخصاً آخر حواراً ما، فإنني أعني أنه يكون حوار بين مستضيف (الذات)، وضيف (الآخر)" (Levinas, of good who comes to mind, translated by Bettina Bergo, 2005, p. 138)

بمعنى حينما تقبل الأنا محادثة الآخر، فهذا يعني قبولها استضافته والترحيب به، الاستماع إلى ما يريد قوله لها، ومهما كان موضوع الحوار فإن قبولها التمازج معه واستجابتها لنداءه، يعني الكثير، فهي بذلك تعترف بإنسانية الإنسان الآخر، وبغيرته وتولي اهتماماً له ولما سيقوله، وبالتالي تمنحه فرصة للخروج من عزلته، وتمنح ذاتها فرصة لمشاركته والتواصل معه، إنه حوار مؤسس على الالتزام الأخلاقي، نحو الآخر عكس الحوار الذي تسعى فيه الأنا إلى امتلاك الآخر والسعي إلى الهيمنة عليه، ومن الأسباب التي قد تؤدي إلى حدوث صراع بين الأنا والآخر، هو اختلافهما في الجانب العقائدي، فكثير ما يكون الاختلاف في الدين، هو السبب في حدوث مثل هذا الصراع، لأن كل طرف منهما يحاول أن ينتقد ديانة الآخر وإقصاءها وعدم الاعتراف بها أو الإساءة إليها والتقليل من شأنها، فقد يحدث الصراع بين اليهودي والمسيحي، أو بين اليهودي والمسلم، بسبب اختلاف تصوراتهم الدينية لمسألة ما، أو يسعى كل طرف إلى فرض ديانته على الطرف الآخر وحتى إن تمازجاً فإن الطابع الغالب على هذا الحوار هو الصراع والعنف والتعصب الديني، وتهميش كل طرف للآخر، وقد يصل هذا الخلاف الديني إلى حد حدوث أزمات وحروب، بين الشعوب، لذلك ومن أجل علاج هذا الخلاف ينتقل إيمانويل ليفيناس من حديثه عن طبيعة الحوار بين الأشخاص (الأنا والآخر) إلى حديثه عن طبيعة الحوار بين الأديان، فيشير أولاً إلى أن الدين واجب أن يكون له جوهر أخلاقي لأنه كما يقول إيمانويل ليفيناس: "لا معنى للدين الذي يركز على العقائد التجريدية والطقوس المفرطة لأن هذا يتجاهل القلق والحب تجاه الآخرين، وهذا النوع من الدين يحول اهتمام الذات بعيداً عن الآخر

(Emmanul, 1982, p. 105) بمعنى أن الدين القائم على الطقوس والعقائد لا يؤسس لعلاقات أخلاقية بين الناس، لأن الانشغال بهذه الطقوس يبعدنا عن الاهتمام بالآخر ولا يجعلنا نشعر بالمسؤولية تجاهه، وهذا الموقف الذي تبناه إيمانويل ليفيناس ضد الدين القائم على الطقوس أو الدين كعلاقة مع المتعالي هو نفسه رأي القباله الحسيدية التي انتشرت في ليتوانيا والتي رفضت أن يؤسس الدين على الطقوس والعبادات، وعليه فإن الدين في نظر إيمانويل ليفيناس " ليس علاقة مع المتعالي ولكنه هو العلاقة التي تنشأ بين الأنا والآخر والتي لا يمكن أن تندرج داخل الكلائية" (ليفيناس، 2014، p. 10)،

وعليه فإن الدين الحقيقي هو القائم على الأخلاق وجب أن تكون الأسبقية للأخلاق، إضافة إلى هذا يؤكد إيمانويل ليفيناس وجود اختلافات بين الأديان حول عدة مسائل وقضايا، كما يؤكد وجود أتباع لكل دين (معتنقين له)، وهم أشخاص مثلنا، وبالتالي لا يجب الدخول في صراع معهم، بحجة أن ديانتهم تختلف عن ديانتنا، ولا ينبغي إقصاءهم، وممارسة العنف ضدهم وضد ديانتهم بل وجب على أتباع كل دين أن يحترموا أتباع الديانات الأخرى، وأن يحترموا دياناتهم، فالدين عند إيمانويل ليفيناس " ليس الحماس العاطفي والاتصال المباشر مع الله ولكنه استجابة الوعي والعقل بالمسؤولية تجاه الآخر" (Levinas, difficult freedom essays on Judaism, 1990, p. 23)

فمثلا للشخص الآخر غيريته والتي وجب على الأنا احترامها والاعتراف بها، كذلك يوجد لكل دين غيريته التي وجب علينا احترامها والاعتراف بها، وجب علينا التعامل مع أتباع هذه الأديان ليس على أساس ديني، لأن ذلك سيحيلنا إلى الاختلاف والصراع والحروب، بل وجب أن تؤسس علاقتنا بهم على أساس الوجه وعريه، ولا يجب إقامة الحوار بين الأديان من أجل معرفة هذه الأديان (أي لا يكون لهذا الحوار بعدا معرفيا فقط)، ولا ينبغي الانشغال بمقارنتنا للأديان، لأن هذا سيؤدي إلى اختزال ديانة الآخر داخل الذات، بل الواجب هو النظر إلى هذه الأديان المختلفة فيما بينها، نظرة خلقية لأن معتنقي هذه الديانات هم يمثلون أيضا الشخص الآخر، ومثلما وجب أن تكون العلاقة بين الأنا والآخر علاقة أخلاقية ميتافيزيقية لا أنطولوجية كذلك وجب أن تتجسد هذه العلاقة بين الأديان، ومثلما يكون اللقاء بين الأنا والآخر له بعدا أخلاقيا إنسانيا لا معرفيا، وجب أيضا أن يكون الحوار بين الأديان له بعدا أخلاقيا لا معرفيا، يقول إيمانويل ليفيناس: " يجب أن تعتبر كل دين وجها آخر لأن أتباعه هم أشخاص (Levinas, totality and infinity an essay on infinity, 1969, p. 78)

يقول الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري: " إن ليفيناس بضربة واحدة يحل مشكلة الأخلاقيات في مجتمع علماني، فبدلا من الأنانية، والدفاع عن المصلحة الشخصية والرؤية الهوبزية الداروينية حيث يصبح الإنسان ذنبا لأخيه الإنسان، يطرح إيمانويل ليفيناس المواجهة مع الآخر وإدراكه بشكل ميتافيزيقي (غير أنطولوجي) باعتباره الحل الحقيقي للمشكلة الأخلاقية، فمن خلال مثل هذه المواجهة يمارس الإنسان إحساسا عميقا بالمسؤولية تجاه الآخر، أي من خلال إدراكه له ككيان متعين منفرد له وجه فريد" (الوهاب، 1999، p. 412)، بمعنى آخر يحذرنا إيمانويل ليفيناس من أن نجعل الهدف الأساسي من معرفتنا للأديان هو معرفة تعاليم وتشريعات كل دين ومقارنة ذلك بتعاليم وتشريعات دين آخر، لأن ذلك سيؤدي بنا إلى التركيز على تحديد الفوارق بين الأديان ومن ثمة إبرازنا الاختلافات والخلافات الواردة بينها (الأديان)، وطبعاً نكون بهذا قد ساهمنا في إثارة الصراع بينها وتغذيتها، لذلك وجب أن تكون العلاقة بين الأديان علاقة قائمة على التسامح والاعتراف والحوار المؤسس على الأخلاق، ولا ينبغي أن تكون علاقة قائمة على الصراع والإقصاء والتناحر.

الخلاصة:

ما نخلص إليه في نهاية هذه الورقة البحثية، أن إيمانويل ليفيناس هو واحد من الفلاسفة الذين انصب اهتمامهم حول ضرورة إيجاد حلولاً للمشاكل والأزمات التي تعيشها الإنسانية، وقد اختزل إيمانويل ليفيناس كل هذه المشاكل والأزمات في مشكل واحد راه هو المنبع والأصل، إنه الصراع القائم بين الأنا والآخر، دوماً، ومهما كانت أسبابه: إيديولوجية، عقائدية، عرقية أو خلافات سياسية أو إقليمية، فإن المؤكد أن ثمة دوماً صراعاً قائماً بين الأنا والآخر سواء كانا أفراداً أو جماعات ودولاً، ووجب إيجاد حل لكل ذلك، وفي تحديده لأسباب الصراع بين الأنا والآخر، وأكد إيمانويل ليفيناس أن مفهوم الحرية المطلقة الذي أنتجته الليبرالية، أدت بالأنا إلى إقصاءها للآخر وتهميشه، واختزاله في ذاتها وعدم اعترافها بغيريته، بل وممارستها للعنف والتعذيب ضده، الأمر الذي زاد من حدة الصراع بينهما ووسع دائرة الخلافات والأزمات، ومن أجل القضاء على هذا الصراع، قدم إيمانويل ليفيناس من خلال فلسفته الغيرية، العلاج وهو علاج أخلاقي، لقد رفض فكرة الحرية المطلقة، وأحل محلها المسؤولية الأخلاقية، وأكد على ضرورة أن تكون العلاقة بين الأنا والآخر علاقة ميتافيزيقية لا أنطولوجية، أخلاقية لا معرفية، لأن الآخر في

انكشاف وجهه إنما يعبر عن ضعفه، عوزه وخوفه، لذلك وجب على الأنا أن تعترف بغيريته وأن لا تمارس العنف ضده وأن تحترمه وتشعر بالمسؤولية نحوه فهي ملزمة أخلاقيا لا قانونيا، بأن تساعد وتخشى عليه من الموت، بل وإن تطلب الأمر أن تضحي بحياتها لأجل بقاءه حيا، إنه نداء الإنسانية الذي وجب على كل أن تحترمه وتعامل الآخر بمقتضاه، إنها مسؤولية عن الآخر، دون أن تنتظر من الآخر أن يكون مسؤولا عنها، ودون أن تنتظر مقابلا، إنها مسؤولية إلزامية أخلاقية غير مشروطة ولا متناهية، كما أن الأنا وجب أن تشعر أنها مسؤولية ليس فقط عن الآخر وإنما عن الجميع.

إن مسؤولية الأنا تجاه الآخر، تلزمها أولا بالامتناع عن ممارسة العنف ضده وعدم إقصاء، والاعتراف بغيريته، والترحيب به، كذلك الاهتمام به وبما يريد قوه ومساعدته بل والتضحية لأجله، كذلك وجب أن يكون تحاورها معه، أخلاقيا يخرج كل منهما من عزلته وتمركزه حول ذاته، إنها مسؤولية الأنا نحو الآخر، مسؤولية أخلاقية إنسانية، وجب أن تطل أيضا العلاقات بين الدول والشعوب، هذا هو المشروع الذي قدمه إيمانويل ليفيناس لحل أزمة الغيرية، ورغم أنه يهودي وأن ديانته تتضمن تعاليم تدعو إلى إقصاء الآخر (الجوييم) خاصة في التوراة والتلموذ، هذا الأخير الذي قال عنه أن فلسفته جاءت للتعريف به، ورغم أن فكرة أو معتقد شعب الله المختار في التلموذ تحمل دعوة صريحة إلى إقصاء الشعوب الأخرى، إلا أن إيمانويل ليفيناس أكد في فلسفته خلافا لما جاء في ديانته، ووجوب أن تؤسس العلاقة بين الأنا والآخر، سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب أو الديانات على الأخلاق ومبدأ الإنسانية لا على الصراع والتناحر.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل يمكن تجسيد مشروعه الإنساني على أرض الواقع أم أنه تصوّر طوباوي خاصة وأنا في زمن أضحي فيه مبدأ الأنانية هو المتحكم في العلاقات البشرية؟

قائمة المصادر والمراجع

- Levinas, E. (1991). *entre nous sur le penser à l'autre*. Paris: grasset et fasquelle.
- Emmanuel, L. (1978). *deutrement qui etre ou de lessence*. paris: essais.
- Emmanuel, L. (1994). *humanisme de l'autre homme*. paris: le livre de poche.
- Emmanuel, L. (2011). *éthique et infini*. paris.
- Emmanul, L. (1982). *I au dela du verset*. paris: minuit coll critique.
- Levinas, E. (1969). *totality and infinity an essay on infinity*. Duquesne university press.
- Levinas, E. (1990). *difficult freedom essays on Judaism*. Johns Hopkins university press.
- Levinas, E. (1993). *outside the subject*. Stanford university.
- Levinas, E. (2005). *of good who comes to mind, translated by Bettina Bergo*. stanford university, press.
- Levinas, E. (2010). *difficile liberté*. Paris: 9éd. Essais.
- منشورات الاختلاف: المغرب مندخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس من الفينومينولوجيا إلى الإتيقا، (2003). إ. ك. الدين،
- دار الشروق: القاهرة. (نموذج تفسيري) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. (1999). م. ا. الوهاب
- 1/معايير للنشر والتوزيع، ط: سوريا الزمان والآخر، (2014). إ. ليفيناس،

